نحو وعي إسلامي

حسن البنا

الرجل القرآني

بقلم الكاتب الأمريكي

روبير جاكسون

ترجمة: أنور الجندي



حسن البنـــا
الرجل القرآنى

تأليف : روبير جاكسون
ترجمة : انور الجندى

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ القاهرة

الطبعة الاولى
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

فى فبراير سنة ١٩٤٦ ، كنت فى زيارة للقاهرة .. وقد رأيت أن أقابل الرجل الذى يتبعه نصف مليـون شخص ، وكتبت فى النيويورك كرونيكل بالنص :

« زرت هذا الأسبوع رجلا قد يصبح من أبرز الرجال فى التاريخ المعاصر ، وقــد يختفى اسمه اذا كانت الحوادث أكبر منه ، ذلك هو الشيخ حسن البنا زعيم الاخوان » .

هذا ماكتبته منذ خمس سنوات ، وقد صدقتنى الأحداث فيما ذهبت اليه، فقد ذهب الرجل مبكرا.. وكان أمل الشرق فى صراعه مع المستعمر . وأنا أفهم جيدا أن الشرق يطمح الى مصلح يضم صفوفه ، ويرد له كيانه ، غير أنه فى اليوم الذى بات فيه مثل هذا الأمل قاب قوسين أو أدنى انتهت حياة الرجل على وضع غير مألوف .. وبطريقة شاذة ..

هكذا الشرق لا يستطيع أن يحتفظ طويلا بالكنز الذى يقع فى يده .. لقد لفت هــذا الرجل نظرى بصورته الفذة ، عنــدما كنت أزور القاهرة بعد أن التقيت بطائفة كبرى من زعماء مصر ورؤساء الأحزاب فيها .

كان هذا الرجل خلاب المظهر ، دقيق العبارة ، بالرغم من انه لا يعرف لغة أجنبية . لقد حاول اتباعه الذين كانوا يترجمون بينى وبينه أن يصــوروا لى

أهداف هذه الدعوة ، وأفاضوا فى الحديث على صورة لم تقنعنى .

وظل الرجل صامتا ، حتى اذا بدت له الحيرة فى وجهى ، قال لهم : قولوا له شيئا واحدا : هل قرأت عن محمد ؟ قلت : نعم ، قال : هل عرفت ما دعا اليه وصنعه ؟ قلت : نعم . قال : هذا هو ما نريده .

وكان فى هذه الكلمات القليلة ما أغنانى عن الكثير مما حاول البعض من انصار البنا ان يقولوه لى .

.. لفت نظرى الى هذا الرجل سمته البسيط ، ومظهره العادى ، وثقته التى لا حـــد لها بنفسه ، وايمانه العجيب بفكرته .

كنت أتوقع أن يجىء اليوم الذى يسيطر فيــه هذا الرجل على الزعامة الشعبية ، لافى مصر وحدها ، بل فى الشرق كله .

وسافرت من مصر بعـــد أن حصلت على تقارير وافية ضافية عن الرجل وتاريخه ، وأهدافه وحياته ، وقد قرأتها جميعــا وأخذت أقارن بينه وبين جمـــال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد أحمد المهدى ، والسيد السنوسى ، ومحمد بن عبدالوهاب ، فوصل

بى البحث الى أن الرجل قد أفاد من تجارب هـؤلاء جميعا ، واخذ خير ما عنـدهم ، وأمكنه أن يتفادى ما وقعوا فيه من أخطاء . ومن أمثلة ذلك انه جمـع بين وسيلتين متعارضتين ، جرى على احداهما الأفغانى وارتضى الأخرى محمد عبده .

.. كان الأفغانى يرى الاصلاح عن طريق الحكم ، ويراه محمد عبده عن طريق التربية .. وقد استطاع حسن البنا أن يدمج الوسيلتين معا ، وأن يأخذ بهما جميعا ، كما أنه وصل الى مالم يصلا اليه، وهو جمع صفوة المثقفين من الطبقـات والثقافات المختلفة الى مذهب موحد ، وهدف محدد .

ثم اخذت اتتبع خطوات الرجل بعد أن عدت من امريكا وأنا مشغول به حتى أثير حوله غبار الشبهات حينا ، مما انتهى الى اعتقال أنصاره ، وهى مرحلة كان من الضرورى أن يمر بها اتباعه ، ثم استشهاده قبل أن يتم رسالته .

وبالرغم من اننى كنت أسمع فى القاهرة أن الرجل لم يعمـل شيئا حتى الآن وانه لم يزد على جمـع مجموعات ضخمة من الشباب حوله ، غير أن معركة فلسطين ، ومعركة التحرير ، الأخيرة فى القناة ، قد اثبتتا بوضوح أن الرجل صنع بطولات خارقة .. قل أن تجد لها مثيلا ، الا فى تاريخ العهد الأول للدعوة الاسلامية .

كل ما أستطيع أن أقوله هنا ، أن الرجل أفلت من غوائل المرأة والمال والجاه ، وهى المغريات الثلاث التى سلطها المستعمر على المجاهدين وقد فشلت كل المحاولات التى بذلت فى سبيل اغرائه .

وقد أعانه على ذلك صوفيته الصادقة ، وزهده الطبيعى ، فقد تزوج مبكرا ، وعاش فقيرا ، وجعل جاهه فى ثقة اولئك الذين التفوا حوله ، وأمضى حياته القصيرة العريضـــة مجانبا لميادين الشهرة الكاذبة ، وأسباب الترف الرخيص .

وكان يترقب الأحداث فى صبر ويلقاها فى هدوء ، ريتعرض لها فى اطمئنان ، ويواجهها فى جرأة .

لقـــد شاءت الأقدار أن يرتبط تاريخ ولادته ، وتاريخ وفاته بحادثين من أضخم الأحداث فى الشرق فقــد ولد عام ١٩٠٦ وهو عام دنشواى ، ومات عام ١٩٤٩ ، وهو عام اسرائيل ، التى قامت شكليا سنة ١٩٤٨ وواقعيا سنة ١٩٤٩ .

وكان الرجل عجيبا فى معاملة خصومه وأنصاره على السواء ، كان لا يهاجم خصومه ولايصارعهم بقدر ما يحاول اقناعهم وكسبهم الى صفه ، وكان يرى أن الصراع بين هيئتين لا يأتى بالنتائج المرجوة .

وكان يؤمن بالخصومة الفكرية ، ولا يحولها ألى خصومه شخصية ، ولكنه مع ذلك لم يسلم من ايذاء معاصريه ومنافسيه ، فقد أعلنت عليه الأحزاب حربا عنيفة .. كان الرجل يقتفى خطـــوات عمر وعلى ، ويصارع فى مثل بيئة الحسين ، فمات مثلهم شهيدا .

لقد سمعت الكثير من خصومه، وكان هذا طبيعيا ، بل كان من الضرورى أن يختلف الناس فى رجـــل أستطاع أن يجمـــع حوله هذا الحشد الضخم من الناس بسحر حديثه وجمال منطقه ، وقـــد انصرف هؤلاء من حول الأحزاب، والجماعات والفرق الصوفية والمقاهى ودور اللهو .

وكان لا بد أن يصبح هذا مثار حقد بعض الناس الذين أدهشهم أن يستطيع هذا الرجل المتجرد الفقير أن يجمع اليه مثل هذا الشباب .

ومن الأمور التى لفتت نظرى انه اخذ من عمـــر خصـــلة من أبرز خصاله ، تلك هى ابعـــاد الأهل عن مغانم الدعوة ، فقد ظل عبدالرحمن ومحمد وعبـــد الباسط ، وهم اخوته ، بعيدين عن كبريات المناصب، ولطالمـــا كان يحاسبهم، كماكان عمر يحاسب أهـــله ويضاعف لهم العقوبة اذا قصروا .

وقد اتيح لى أن التقى بوالده الوقور ، الشيخ عبدالرحمن البنا ، وسمعته يتحدثمع بعض الاخوان،

انه كان يتمنى لو أن ابنه وضع الكتب فى أمر الاسلام واكتفى بذلك ، وقد رد عليه الاستاذ البنا بأنه منشرح الصدر لمعالجة الاسلام عن طريق تآلف الرجال .

ثم يتحدث جاكسون عن نشأة حسن البنا وأفكاره فيقول :

... فى الأزقة الضيقة فى أحشاء القاهرة ، فى حارة الروم ، وسوق السلاح وعطفة نافع ، وحارة الشماشرجى .. بدأ الرجل يعمل ، وتجمع حوله نفر قليل ، وكان حسن البنا الداعية الأول فى الشرق الذى قدم للناس برنامجا مدروسا كاملا ، لم يفعل ذلك أحد قبله ، لم يفعله جمال الدين ولا محمد عبده ، ولم يفعله زعماء الأحزاب والجماعات الذين لمعت أسماؤهم بعد الحرب العالمية الأولى ..

... واستطيع بناء على دراساتى الواسعة أن أقول ان حياة الرجل وتصرفاته كانت تطبيقا صادقا للمبادىء التى نادى بها. وقد منحه « الاسلام » كما كان يفهمه ويدعو اليه ، حلة متألقة ، قوية الأثر فى النفوس ، لم تتح لزعماء السياسة ولا لرجال الدين !

لم يكن من الذين يشترون النجاح بثمن بخس ، ولم يجعل الواسطة مبررة للغاية، كما يفعل رجال السياسة ، ولذلك كان طريقه مليئا بالأشواك ، وكانت

آية متاعبه أنه يعمل فى مجرى تراكمت فيـه الجنادل والصخور ، وكان هذا مما يدعوه الى أن يدفع اتباعه الى التسامى ويدفعهم الى التغلب على مغرياتعصرهم والاستعلاء على الشـهوات التى ترتطم بسفن النجاة فتحول دون الوصول الى البر .

كان يريدأن يصل الى الحل الأمثل ، مهما طال طريقه ، ولذلك رفض المساومة ، والغى من برنامجه انصاف الحلول ، وداوم فى الحاح القول بأنه لا تجزئة فى الحق المقدس فى الحرية والوطنيـة والسيادة .. وكان هذا مما سبب له المتاعب والأذى .

وراعت بعض من حوله الثمرة ، وعجزت أعصابهم عن أن تقاوم البريق ، فسقطوا فى منتصف الطريق.

كان يؤمن بالواقعية ويفهم الأشياء على حقيقتها ، مجردة من الأوهام ، وكان يبدو ـ حين تلقاه ـ هادئا غاية الهدوء . وفى قلبه مرجل يغلى ، ولهيب يضطرم فقد كان الرجل غيورا على الوطن الاسلامى ، يتحرق كلماسمع بأن جزءا منه قد اصابه سوء أوألم به أذى، ولكنه لم يكن يصرف غضبته ـ كبعض الزعماء ـ فى مصارف الكلام أو الضجيج أو الصياح ، ولا ينفس عن نفسه بالأوهام ، وانما يوجه هـذه الطاقة القوية الى العمل والانشاء والاستعداد لليوم الذى يمكن أن تتحقق فيه آمال الشعوب .

وكان في عقله مرونة ، وفي تفكيره تحرر ، وفي روحه اشراق ، وفي أعماقه ايمان قوي جارف .

وكان متواضعا تواضع من يعرف قدره ، متفائلا ، عف اللسان ، عف القلم ، يجل نفسه عن أن يجري مجرى أصحاب الألسنة الحداد .

كان مذهبه السياسي أن يرد مادة الأخلاق الى صميم السياسة بعد أن نزعت منها ، وبعد أن قيل أن السياسة والاخلاق لا يجتمعان .

وكان يريد أن يكذب قول تاليران : « ان اللغة لا تستخدم الا لاخفاء آرائنا الحقيقية » فقد كان ينكر أن يضلل السياسي سامعيه أو اتباعه ، أو أمته . وكان يعمل على أن يسمو بالجماهير ، ورجل الشارع ، فوق خداع السياسة ، وتضليل رجال الأحزاب .

وكان يوم الثلاثاء .. يوما مشهودا يتجمع فيه بعض مئات من أنحاء القاهرة ليستمعوا الى هذا الرجل الذي يصعد المنصة في جلبابه الأبيض وعباءته البيضاء وعمامته الجميلة ، فيجيل النظر في الحاضرين لحظة .. بينما تنطلق الحناجر بالهتاف ..

.. ولا تدهشك خطابته بقدر ما تدهشك اجابته

عن الأسئلة التى كان بعضها يتصل بشخصيته وحياته واسرته .

وقد سئل مرة بعد أن ترك عمله فى الحكومة ورفض مرتب الجريدة الضخم الذى كان يبلغ مائة جنيه .. مم يأكل .. فقال فى بساطة : كان محمد يأكل من مال خديجة وانا آكل من مال « اخ خديجة» نقصد صهره ..

وكان أعجب ما فى الرجل صبره على الرحلات فى الصعيد .. هذه الرحلات التى لاتبدأ الافى فصل الصيف حيث تكون بلاد الوجه القبلى فى حالة غليان.. وفى احشائها يتنقل الرجل بالقطار والسيارة والدابة وفى القوارب وعلى الأقدام .

وهناك تراه ، غاية فى القوة واعتدال المزاج .. لا الشمس اللافحة ، ولامتاعب الرحلة .. تؤثر فيه ولا هو يضيق بها.. تراه منطلقا كالسهم ، منصوب القامة يتحدث الى من حوله ، ويستمع ، ويفصل فى الأمور .

وقد امدته هذه الرحلات ، فى خمسة عشر عاما ، زار خلالها أكثر من ألفى قرية ، وزار كل قرية بضعة مرات ، بفيض غزير من العلم والفهم للتاريخ القريب والبعيد وللأسر والعائلات والبيوتات وأحداثها وأمجادها

وما ارتفع منهـــا وما انخفض .. وألوانها السياسية وأثرها فى قراها وبلادها ورضا الناس عنها أو بغضهم لها .. وما بين البلاد أفرادا وأحزابا وهيئات وطوائف من خلافات أو حزازات .. كان يزور أحيانا بلدا من البلاد بلغت فيه الخصومة بين عائلتين مبلغها ، وكل عائلة تود أن تستأثر به لتنتصر على الأخرى ، فيقصد الى المسجد مباشرة ، أو يغيرطريق سفره فلا يستقبله أحد الا بعد أن يكون قدقصد الى دار عامل فقـير فى البلد ..

.. وكنت اذا قلت له فلان .. الحسينى مثلا أو الحديدى أو الحمصانى قال لك .. ان هذا الاسم تحمله خمس أسر أو أربع . احـــداها فى القاهرة والثانية فى دمنهور والثالثة فى الزقازيق والرابعة فى .. فأيها تقصد ؟

وكانت هذه الزيارات المتوالية طوال هذه السنوات المتتالية ، قد كونت له رأيا فى الناس .. فقل أن تكون قرية فى مصر لايعرف الرجل شبابها وأعيانها ووزراءها ورجال الأحزاب والدين والمتصوفة فيها .. ولا يكون قد تحـــدث اليهم واستمع منهم .. وعرف آمالهم ورغباتهم ، وفى خلال هـــذه الزيارات .. كنت ترى الرجل بسـيطا غاية البساطة ينام فى الأكواخ أحيانا ، ويجلس على « المصاطب » ، ويأكل مايقدم له .

لا يحرص الا على شيء واحد هو الا يفهم الناس عنه أنه شيخ طريقة .. أو من الطامعين فى المنفعة العاجلة .

ولقد حدثنى أنه كان يدخل بلدا من البلاد أحيانا لا يعرف فيه أحدا فيقصد الى المسجد ، فيصلى مع الناس، ثم يتحدث بعد الصلاة عن الاسلام .. وأحيانا ينصرف الناس عنه فينام على حصير المسجد وقد وضع حقيبته تحت رأسه .. والتف بعباءته . ولاشك وشبانا ، مثقفين وعوام . . وانه قد استمع اليهم وقال لهم .. وأفاد منهم خبرة ضخمة واسعة .. أضافها الى علمه وثقافته .. وانى على ثقة من أن حسن البنا رجل لا ضريب له فى هذا العصر ، وانه قد مر فى تاريخ مصر ، مرور الطيف العابر ... الذى لا يتكرر ..

« كان لابد أن يموت هذا الرجل الذى صنع التاريخ وحول مجرى الطريق شهيدا .. كما مات عمر وعلى والحسين ، فقد كان الرجل يقتفى خطواتهم .

مات فى عمر الزهر النضير ، وفى نفس السن التى مات فيها كثير من العباقرة ورجال الفكر والفن .. وقضى وهو يسطع ويتألق .

وعاش الرجل كل لحظة من حياته ، بعد أن

عجزت كل وسائل الاغراء فى تحويله عن «نقاء» الفكرة وسلامة الهدف .

لم يحن راسه ، ولم يتراجع ولم يتردد امام المثبطات ولا المهددات .. وكان الرجل قذى فى عيون بعض الناس ، وحاول الكثيرون ان يفيدوا من القوة التى يسيطر عليها ، فقال لهم ان انصاره ليسوا عصا فى يد أحد ، وانهم لله وحده . وحاول البعض ان يضموه اليهم أو يطووه ، فكان أصلب عودا من أن يخدع أو ينطوى ..

وكان على بساطته التى تظهر للمتحدث اليه ، بعيد الغورالى الدرجةالتى لاتفلت متصلا به أومتحدثا اليه منأنيقع فى شركه .. ويؤمن بالفكرة التى يدعو اليها ..

وكان لا يواجه الا منيعترض طريق دعوته ، وكان يستر من لم يكشف خصومته . وكان لا يهاجم عهدا مادام هذا العهد لا يحول دون الامتداد الطبيعى لدعوته وكان يدخر قوته للوطن ، ويكبر نفسه ودعوته من أن تكونا أداة صراع داخلى .. وظن بعض الناس أنهذا ضعف ولين ومسايرة ، وماكان كذلك ، فالرجل بطبيعتهلم يكن يحب الصراع فى معركة جانبية، ولايقبل توزيعقواه .. وانما يؤمن بالتطور والانتقالمن مرحلة

الى مرحلة ، ومن دور الى دور على أساس النضج والتكامل ، وكان هذا يزعج خصوم الوطن الذى لم يعهد سياسة تعلو على المطامع الفردية ، وتتعالى على الاغراض الذاتية، وتنقى جوها من الدوافع الشخصية الخاصة .

وكان الرجل على قدرته الفائقة فى ضبط أعصابه كيسا فى مواجهة الأمور ، لبقا فى استقبال الأحداث والازمات .

والى هذا كله كان غاية الاعتدال ، فكان يعيش براتب لا يزيد على راتبه المدرسي المحدود ، وبين يديه الأموال الضخمة المعروضة من اتباعه ، وحوله من العاملين معه من يصل دخله الى ضعف أو أضعاف ما يحصل عليه .

زهد وبساطة

وكان فى بيته مثال الزهادة ، وفى ملبسه مثال البساطة ، وكنت تلقاه فى تلك الحجرة المتواضعة الفراش ذات السجادة العتيقة والمكتبة الضخمة ، فلاتراه يختلف عن أى انسان عادى، الا ذلك الاشعاع القوى والبريق اللامع الذى تبعثه عيناه . والذى لا يقوى الكثيرون علىمواجهته ، فاذا تحدث سمعت من الكلمات القليلة المعدودة موجزا واضحا للقضايا المطولة التى تحتويها المجلدات ، وكان الى هذه الثقافة

الواسعة الضخمة ، قـديرا على فهم الأشخاص . لا يفاجئك بالرأى المعارض ، ولا يصدمك بما يخالف مذهبك ، وانما يحتال عليك حتى يصـل الى قلبك ويتصل بك فيما يتفق معك عليه .. ويعـذرك فيما تختلفان فيه . وهو واسع الأفق الى أبعد حد، يفتح النوافذ للهواء الطلق ، فلا يكره حرية الرأى ولا يضيق بالرأى المعارض، وقداستطاع أن يحمل الرأى الجديد الى الجماهير دون أن يصطدم بهم .. هذا الجديد الذى لو عرض بغير لباقة لوقفوا ضده وحاربوه . . لقد نقلهم من وراثياتهم ، وغير فهمهم للدين : وحول اتجاههم فى الحياة واعطاهم الهدف وملأ صـدورهم بالأمل فى الحرية والقوة .

وكان له من صفات الزعماء ، صوته الذى تتمثل فيه القوة والعاطفة ، وبيانه الذى يصـل الى نفوس الجماهير ولا تنبو عنه أذواق المثقفين . وتلك اللباقة والحنكة والمهارة فى ادارة الحديث والاقناع .

وبهذه الصفات جميعها استطاع كسب هذه الطائفة الضخمة من الأنصار فى هذاالوقت القصير من الزمن، فحول وجهات نظرها ، ونقلها نقلة واسـعة .. دون ارتطام أو صراع ..

كان سمته البسيط ولحيته الخفيفة، وذلك المظهر

الذى لا تجد فيه تكلف بعض العلماء ، ولا العنجهية ولا السذاجة .. قد اكسبه الوقار ..

ولقد كانت شخصية حسن البنا جديدة على الناس .. عجب لها كل من رآها واتصل بها.. كان فيه من الساسة دهاؤهم ، ومن القادة قوتهم ، ومن العلماء حججهم، ومن الصوفية ايمانهم، ومن الرياضيين حماسهم ، ومن الفلاسفة مقاييسهم ، ومن الخطباء لباقتهم ومن الكتاب رصانتهم .

وكان كل جانب من هذه الجوانب يبرز كطابع خاص فى الوقت المناسب ، ولكل هذه الصفات التى تقرؤها فى كتب شمائل الصحابة والتابعين ، لم يكن مقدرا أن يعيش طويلا فى الشرق .. وكان لابد أن يموت باكرا ، فقد كان غريبا عن طبيعة المجتمع ، يبدو كأنه الكلمة التى سبقت وقتها ، أو لم يأت وقتها بعد .

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف اليدين ، أمام مثل هذاالرجل .. الذى أعلى كلمة الاسلام على نحو جديد .. وكشف لرجل الشارع حقيقة وجوده ومصيره وجمع الناس على كلمة الله .. وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس ونزعات القومية الضيقة .. واعتدلت لهجات الكتاب ، وبدأ بعضهم يجرى فى ركب « الريح الاسلامية » .

ثقافة حسن البنا

ولم تكن هناك دعوة ولا نزعة ولا رسالة ، مما عرف العالم فى الشرق اوفى الغرب ، فى القديم أو فى الحديث .. لم يبحثها او يقراها او يدرس ابطالها ، وحظوظهم من النجاح أو الفشل ، أو يحمل منها ما يصلح لتجاريبه وأعماله .

كان يقول كل شيء ، ولا تحس أنه جرح أو أساء .. وكان يوجه النقد فى ثوب الرواية أو المثل ، وكان يضع الخطوط يترك لاتباعه التفاصيل .

كان قديرا على ان يحدث كلا بلغته وفى ميدانه وعلى طريقته ، وفى حدود هواه وعلى الوتر الذى يحس به ، وعلى « الجرح » الذى يثيره .

ويعرف لغات الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية وأهل السنة ، ويعرف لهجات الاقاليم فى الدلتا وفى الصحراء وفى مصر الوسطى والعليا وتقاليدها ، بل انه يعرف لهجات الجزارين والفتوات ، وأهالى بعض أحياء القاهرة الذين تتمثل فيهم صفات معينة بارزة ، وكان فى أحاديثه اليهم يروى لهم من القصص ما يتفق مع ذوقهم وفنهم .

بل كان يعرف لغة اللصوص وقاطعى الطريق

والقتلة ، وقد ألقى اليهم مرة حديثا ، وهو يستمد موضوع حديثه ـ أثناء سياحاته فى الأقاليم وفى كل بلد ـ من مشاكلها ووقائعها وخلافاتها، ويربطه فى لباقة مع دعوته ومعالمها الكبرى ، فيجيء كلامه عجبا .. يأخذ بالالباب .

كان يقول للفلاحين فى الريف « عندنا زرعتان .. احداهما سريعة النماء كالقثاء . والأخرى طويلة كالقطن » .

لم يعتمد يوما على الخطابة ، ولا تهويشها ولا اثارة العواطف على طريقة الصياح والهياج .. ولكنه يعتمد على الحقائق ، وهو يستثير العاطفة باقناع العقل ، ويلهب الروح بالمعنى لا باللفظ ، وبالهدوء لا بالثورة، وبالحجة لا بالتهويش .

ويعد « الحديث » عند بعض الناس آيته الكبرى غير اننى علمت من بعض المتصلين به .. انها آخر مواهبه فقد كانت ابلغ مواهبه القدرة على الاقناع ، وكسب « الفرد » بعد « الفرد » فيربطه به برباط لا ينفصم ، فيراه صاحبه صديقا خاصا ، وتقوم بينه وبين كل فرد يعرفه صداقة خاصة خالصة، يكون معها فى بعض الأحيان مناجاة ، وتنتقل بالتعرف على شئون الوظيفة والعمل والأسرة والاطفال .

وهذه اقوى مظاهر عظمته ، فهو قد يكسب

هؤلاء الاتباع فردا فردا ، واصاب منـــابع أرواحهم هدفا هدفا ، وان لم يكسبها جملة ولا على صــفة جماعية ، وقد استطاع بحصافته وقوته وجبروته أن ينقلها من عقائدهاوافكارها سواء أكانت سياسية أم دينية ، الى مذهبه وفكرته .. فتنسى ذلك الماضى ، بل وتستغفر الله عنـــه ، وتراه كأنمــا كان اثما أو خطأ .

ومن أبرز أعمال هذا الرجل ، أنه جعـــل حب الوطن جزءا من العاطفة الروحية فأعلى قدر الوطن وأعز قيمة الحرية ، وجعل ما بين الغنى والفقير حقــا وليس احسانا ، وبين الرئيس والمرءوس صلة وتعاونا وليس سيادة وبين الحاكم والشعب مسئولية وليس تسلطا .

وتلك من توجيهات القرآن ، غير انه أعلنها هــو على صورة جديدة لم تكن واضحة من قبل .

السماحة والتقشف والتنظيم

لم يكن الرجل القرآنى ، فيما علمت يسعى الى فتنة ، أو يؤمن بالطفرة .. ولكنه كان يريد أن يقيم مجتمعا صالحا قويا حرا ، وينشىء جيــــلا فيه كل خصائص الاصالة الشرقية ..

لقد ظهرت حركات اصلاحية كثيرة خلال هــذا القرن .. فى الهند ومصر والسودان وشمال افريقيا

.. وقد احدثت هزات لا بأس بها ولكنها لم تنتج آثارا ايجابية ثابتة ..

وقد جاء هذا نتيجة لعجـــز بعض المصلحين عن ضبط اعصابهم عند مواجهة الاحداث واندفاعهم الى الحد الذى وصل بهم الى مرتبة الجرح قبل أن يتم البناء ، كما جـــاء أثرا من آثار عزوفهم عن الاتصـــال بالشعب وتكوين رأى عام مثقف .

اختفت هذه الدعوات ، وبقيت عبارات على الألسن وكلمات فى بطون الكتب ، حتى قبض لها أن تبعث من جديد وان تستوفى شرائطها ومعالمها .. وان تأخـذ فترة الحضانة الكافية لنضجها ، وأفاد الرجـــل من تجارب من ســبقوه ، ومن تاريخ القـــادة والمفكرين والزعماء .. الذين حملوا لواء دعوة الاسلام ، ولم يقنع بأن يكون مثلهم .. ولكنه ذهب الى آخر الشـــوط ، فأراد أن يستمد من عمر وخالد وأبى بكر .. فأخذ من أبى بكر الســـماحة ، ومن عمر التقشف ــ ومن خالد عبقرية التنظيم .

نقد الحضارة الغربية

وقد استطاع الرجل رغم كل ما دبر لوضـــع حد لدعوته أوحياته ، أن يعمل وأن يضع فى الأرض البذرة الجديدة ، بذرة المصحف ، البذرة التى لا تموت بعد

أن ذوت شجرتها القديمة ، ولم يمت الرجل الا بعد أن ارتفعت الشجرة فى الفضاء واستقرت .

لقد حمل حسن البنا المصحف ووقف به فى طريق رجال الفكر الحديث الذين كانوا يسخرون من ثلاث كلمات : « شرق واسلام وقرآن » كان الرجل يريد أن يقول : آن للشرق أن يمحص أفكار الغرب قبـــل أن يعتنقها، بعدأن غدت الحضارة الغربيةفى نظر أصحابها لا توفى بما يطلب منها ، كان يقول : علينا أن نزن هذه القيم وأن نعتقد ان ما عندنا لا يقل عما عند الغرب أو على الأقــل لا يستحق الاهمال ، وانعلى الشرق أن ينشىء للدنيا حضارة جديدة ، تكون أصلح من حضارة الغرب ، قوامها امتزاج الروح بالمادة واتصال السماء بالأرض وما كنت تعرض لأمر من أمور الحضارة الغربية الا رده الى مصادره الأولى فى الحضارة الاسلامية ، أو فى القرآن والسنة والتاريخ .

كان الرجل القرآنى يؤمن بأن الاسلام قوة نفسية قائمة فى ضمير الشرق وانها تستطيع ان تمده بالحيوية التى تمكن له فى الأرض وتتيـــح له الزحف الى قواعده واستخلاص حقوقه وحرياته .

كان يؤمن بأن الشرق وحدة قائمة كاملة .

كان لايخاف الموت

استطاع حسن البنا أن يؤلف بين طائفة ضخمة من

الاتباع بسحر حديثه ، وجمال منطقه ، وروعة بيانه، فينصرف هذه المجموعة الضخمة من حول الأحزاب والجماعات والفرق الصوفية ، وتنضوى تحت لوائه وتطمئن له وتثق به .

كان هذا مثار حسد الناس ، ومثار حقد بعض ذوى الرأى، وكان خليقا بهم ان ينقسموا وان يحسدوا هذا الرجل المتجرد، الفقير ، على انه استطاع ان يجمع الناس اليه بوسائل غاية فى البساطة واليسر ، وهى لباقته وحسن حديثه .. فيرفعهم فوق المطامع المادية التى يجتمع عليها الناس عادة .

وكان طبيعيا أن يتنكر له بعض الناس، وأن يذيعوا عنه بعض المرجفات فليس اشد وقعا فى نفوسهم من ان يسلبهم احد سلطانا كان لهم . وليس أبعد أثرا فى نفوسهم من أن يجىء رجل من صميم الشعب ليجمع الناس حوله باسم القرآن ، ويقول لهم ان الله قد سوى بين الناس بالحق ، وجعل فضيلتهم عنده على أساس العمل والتقوى .

خيل الى بعد أن انطوت حياة الرجل على هذه الصورة العجيبة ، وثار حولها ذلك الغبار الكثيف ، أن وقتا طويلا يجب أن يمر قبل أن يقول التاريخ الحق كلمته ، ويروى المؤرخ النزيه قصته .

غير ان الظروف السياسية فى مصر سرعان ماتغيرت وامكن ان يكشف التحقيق فى بعض القضايا بطلان كثير مما وصمت به دعوة الاخوان المسلمين من ادعاءات ، وان يبرأ جانب هـذا الرجل بالذات فيبـدو نقيـا طاهرا .

وكنت قد التقيت بالرجل فى القاهرة سنة١٩٤٦ ثم عدت الى القاهرة مرة أخرى سـنة ١٩٤٩ بعد أن قضى ، وحاولت أن أتصـــل ببعض الـدوائر التى نعرفه فسمعت الكثير مما صدق نظرتى الاولى اليه .

فقد علمت انه كان فى أيامه الاخيرة يحس بالموت وكان الكثير من محبيه ينصحه بالهجرة أو الفرار ، أو اللياذ بتقية أو خفية ، فكان يبتسم للذين يقصون عليه هذه القصة وينشد لهم شعرا قديما :

اى يومى من الموت أفر
يوم لا قدر أم يوم قدر
يوم لا قـدر لا ارهبـه
ومن المقدور لا ينجو الحذر

وكان لا ينى لحظة عن محاولة استخلاص انصاره من الاسر ، وكان يبلغ به الأمر مبلغه ، فيستيقظ فى الليل . ويضع كلتا يديه على أذنيه ، ويقول :

اننى اسمع صياح الاطفـال الذين غاب اباؤهم فى المعتقلات .

أغراه الانجليز فرفض

ان تاريخ جهاد « الرجل القرآنى » طويل .. ولكن أخصب سنواته أيام الحرب .. منذ أن خرج من المعتقل عام ١٩٣٦ ، فى هذاالوقت الذى شغلت الحرب الدنيا جميعها، عن الأحزاب ، وعن السياسة، وعن كل شيء ، كان الرجـــل لا ينام ، كان يسعى ويطوف ويذهب الى كل قرية وكل نجع وكل دسكرة يفتش عن الشباب ، ويحـدث الشيوخ ، ويتصـــل بالعظماء والعلماء ، ويومها بهر الوزراء ، وأعلن بعضهم الانضمام الى لوائه الخفاق ، وجيشه الجرار .

وحاول الانجليز أن يقــدموا عروضاسخية .. فرفضها الرجل فى اباء .. ونامت الأحزاب فى انتظار الهدنة ، وظـل الرجل الحديدى الاعصاب يعمـــل أكثر من عشرين ساعة لايتعب ولا يجهد ، كانما صيغت أعصابه من فولاذ .

لقد كان يحب فكرته حبا يفوق الوصف ، ولم يكن فى صدره شيء يزحم هذه الدعوة . كان يعشق فكرته كانما هى حسناء ! لا يجهده السهر ، ولا يتعبه السفر وقد أوتى ذلك العقل العجيب ، الذى يصرف الأمور فى يسر ، ويقضي فى المشاكل بسرعة ويفضها فى بساطة ، ويذهب عنها التعقيد .

كان لا يحتاج الى الاسهاب ليفهم أى امر ، كانما لديه أطراف كل أمر، فما أن تلقى اليه أوائل الكلمات حتى يفهم ما تريد ، بل كان احيانا يجهر بما تريد ان تقول له ، ويفتى لك فيما تريدان تسأل عنه .

كان نافذ البصيرة .. يرى ما وراء الاشباح .. فيه من ذلك السر الآلهى قبس .

كان يلتهم كل شيء ، لاتجد علما ولا فكرا ولا نظرية جديدة فى القانون او الاجتماع أو السياسة أو الأدب ، لم يقرأها ولم يلم بها .

« وحدثنى الرجل القرآنى عندما أخذت اراجعه رايه فى صبغة الاسلام للشرق :

قال : اضرب لك مثلا بتركيا : أنها ستعود الى الاسلام وأن عوامل ذلك العود قد تبدت منذ الآن . كان هذا الحديث بينى وبينه عام ١٩٤٦ وقد

لاحظت فى السنوات التالية ما تحقق من قول حسن البنا فى مايو ١٩٥٠ بعد أن مضى الرجل الى ربه حيث هزم حزب مصطفى كمال وانتصر الحزب الذى كان يقال عنه أنه رجعى .

وسألته عن الصوفية والتصوف وهل هو من الاسلام

وكان ذلك على أثر ما نشرته بعض الصحف (١) من أنه سلالة مغربية تعتنق الطريقة الشاذلية فكان مما افضى به الى ان الصوفية النقبة البعيدة عن التعقيد هى من لباب الاسلام ، وانها هى الدرجة التى يصل اليها الرجل الحق . وانالصوفية بالمفهوم الأصيل تمد الطبع بحب الجهاد والكفاح وافتداء الفكرة وانه يجب أن يرقى اتباعه الى هذه الدرجة ، وانه لا بأس

---

(١) كانت جريدة الخبر قد نشرت فى ٣١ مارس ١٩٤٦ فصلا من فصول عنوانها « رهبان الليل وفرسان النهار » ، جاء فيه قول كاتبه : والذين يدرسون التصوف يعلمون ان الطريقة الشاذلية بقدر ما تحافظ على أساس الشريعة والتربية الاسلامية تحمل سر من أخطر الاسرار الوطنية الاسلامية لا يتنبه له الا من درسوا تواريخ التغيرات فى بلاد المغرب الاقصى والادنى ومن يعلمون مدى نفوذ الصوفية فى هذه البلاد وطريقة تربيتهم للمريدين ، لقد استطعتم ان تفهموا ان الاخوان كانوا يعملون للتربية الروحية ثم اختاروا سبعة من الخلفاء للاشراف على الاعداد للجهاد . هذه الطريقة الشاذلية التى انتهت بالمختار والسنوسى وعبدالكريم ، ثم بالادارسة أولئك الذين يعتبرون من أكبر الائمة الشاذلية هناك ، ان الشاذلية عقيدة روحية سرقها هتلر وموسلينى وستالين — وهى الاعداد العميق والتربية النفسية والصلة بالله وحمل المريد على التطهر والتسامى لادراك ماله وما عليه من طريق العقيدة ثم تركه بعد ذلك ليدافع عن عقيدته دفاع المالك لا دفاع المقلد ولا المدفوع ولا الاجير ولا المجامل .

على الاخوان من أن يأخذوا المعانى القوية الكامنة وراء مظاهر الصوفية فينقلوها الى دعوتهم دون أن يتقيدوا بأثوابهـا القديمـة أو مظاهرها التى لا تتفق مع روح العصر .

فلما أفضيت اليه بخواطري ، فى الخوف من ان يجتمع الناس جميعا على دعوة واحدة لا سيما وان هناك من المواهب الاسلامية ما يحول دون ذلك .

قال لى : ان هذه الخلافات لا تحول دون ارتباط المسلمين ، وانها احدى عوامل السعة ومقدرة الاسلام على مجاراة العصور والأزمنة والاقطار .

« ونحن نعتقد ان الخلاف فى فروع الدين أمر لابد منه، وضرورة لابد منها، وقد قال الامام مالك للخليفة أبى جعفر المنصور حين طلب اليه أن يوطىء للنـاس كتاب يجمعهم عليه : قال ان أصحاب رسول الله قد تفرقوا فى الامصـار وعند كل قوم علم ، فاذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة . فضـلا عن ان التطبيق يختلف باختلاف البيئات ، وقد افتى الامام الشافعى فى مصر بغير ما أفتى به فى العراق وقد أخذ فى كليهما بما استبان له ولذلك فان الاجمـاع فى الفروع مطلب مستحيل وهو يتنافى مع طبيعة الاسلام، ونحن نلتمس العذر لمن يخالفوننا فى الفروع ، ونرى أن هذا الخلاف

ليس حائلادون ارتباط القلوب وتبادل الحب والاخوان أوسع الناس صدرا مع مخالفيهم » .

* ولما سألته عن الاسلام والسياسة وانا ارى انهما لا يتصلان بحال .

قال لى : اترى ان الاسلام بغير السياسة لايكون الا هذه الركعات وتلك الألفاظ وأن الاسلام فى الحق عقيدة ووطن وجنس وسياسة وثقافة وقانون ولو انفصل الاسلام عن السياسة لحصر نفسه فى دائرة ضيقة ولما ترك للمسلمين الا القشور والمظهريات والأشكال .

.. وقال لى فيما قال : ان سر انتصار الغرب وظفره هو الاسلام .

قلت مستغربا كيف : قال من ناحيتين انه حفظ التراث القديم وزاد عليه حين اسلمه لأوربا عن طريق قرطبة والقسطنطينية ، وان الغرب انتصر باخلاق الشرق ومبادئه ، فقد عرف الغرب الحصيف كيف وصل الشرق بهذه الأخلاق الى الذروة فأسس تلك الامبراطورية الضخمة فاستعار هذه الأخلاق ونجح حين غفل عنها الشرق وهو صاحبها وتخلف .

ومضى يقول لى : ان ماتراه الآن فى الشرق ،

ليس هو الاسـلام ولكنهم المسلمون : اسما ووراثة ، هؤلاء الذين لو فهموا حقيقتهم لوصلوا .

وحدثنى بعض اتباع الرجل الفرآنى عما لقى الرجل ابان زيارته لأرض الحجاز ، وكيف تقاطرت على بيته الذى كان ينزل فيه ، وفـود المسلمين من اندونيسيا وجاوه وسيلان والهند ومدغشقر وربونيون ونيجيريا والكمرون وايران والافغان تتعرف عليه وتجتمع به وهو مع كل مجموعة يتحدث عن أمور هى مصـدر اهتمام الفريق الذى يلتقى به ، يحدثهم عن قضاياهم ومشـاكلهم فيبهرهم كانه قادم على التو من بلادهم وليسوا هم القادمين عليه.

وكان فريق من اتباعه يهرعون اليه يحدثونه عما يقول بعض المتشددين فيقول : لا توحيـد بغير حب ، لا توحيد بغير حب .

واعجب العجب أن تستمع الى الكلمات التى يلقيها الرجل الي اتباعه : وفيها تتمثل التضحية الخالصـة والايمان :

* « اننا قد عرفنا الطريق الى اوطاننا الاسلامية: انها هى الجهاد والموت والفـداء : انمـا هى الطريق الوحيد الذى سلكه المؤمنون فى كل زمان ومكان.



* « ان الدنيا كلها تائهة ضالة تبحث عن الحق والمثل العليا فلا تجده فيما لديها من نظم وفلسفات ومبادىء : رسالتكم العظمى للانسانية ان تحرروها وتنقذوها وتسعدوها .

* « ان الشرق يتهيأ لنهضة كبرى ووثبة عظمى وان الغرب يقف له بالمرصاد ولا بد لنا من أن نتسلم راية الحضارة الانسانية لنسعدالناس ونحررهم بعد أن فشل الغرب وتخبط .

* « ان الدنيا حائرة ضالة لاهية : وكلها تنظر الى القيادة ومكانها شاغر ولن يملأها غيركم لاقرار رسالة السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واحقاق الحق وتحرير الانسان بمبادىء من وحى السماء .

« ومما استلفت نظرى فى الرجل القرآنى انه يضع الحدود بين الخصومات الشخصية والخصومات الفكرية : وفى هذا يقول :

(والخصومة بيننا وبين القوم ليست خصومة شخصية أبدا، ولن تكون ولكنها خصومةفكرة ونظام: هم يريدون لهذه الأمة نظاما اجتماعيا ممسوخا من تقليد الغرب فى الحكم والسياسة والقضاء والتعليم

والاقتصاد والثقافة ، ونحن نريد لهـا وضعا ربانيا سليما من تعاليم الاسلام وهديه وارشاده) .

فاذا ذهبنا نتعرف على حقيقة الاسلام كما يفهمه (حسن البنا) وجدناه (عمريا) : انه يفهم الاسلام كما عرفه عمر بن الخطاب .

« اذا أحسنت فاعينوني واذا أسأت فقوموني »

ويفهمه كما عرفه أبو بكر : الضعيف عندى قوى حتى آخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه ، أطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم .

وكان يرى أن يكون الحاكم المسلم من الشجاعة بحيث يقبل ما قبل عمر عندما جابهه الرجل بكلمة (اتق الله) فقال دعها فليقلها لى ، لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها .

ويرى مسئولية الحاكم فى حدود قول عمر :

« لو عثرت شاه بشاطىء الفرات لظننت ان الله عز وجل سائلى عنهايوم القيامة » .

ويرى الحاكم من حيث القدرة على الانصاف من النفس كقول عمر « اصابت امراة واخطأ عمر »

ويؤمن بتطبيق نظام عمر فى القضاء اجعل الناس عندك سـواء ، لا تأخـذك فى الله لومة لائم . واياك والاثرة والمحاباة فيما ولاك الله .

ويردد فى أكثر من مرة قـول الرسول لاسامة : اتشفع فى حد من حدود الله والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

ويحب ان يطبع المسلم حياته بطابع كلمة عمـر الخالدة :

« أحب من الرجل اذا سيم الخسف ان يقول (لا) بملأ فمه .

وهو على هذه الأسس من المفاهيم الاسلامية العميقة كان ينشىء جيله ويبنى كتيبته ويرسم «الطوبا» التى اذا طبقت حقق الاسلام فى الشرق دوره وزحف الى مكان الزعامة العالية والصدارة الانسانية .
ويرى أن قاعدة الاسلام الأسـاسية هى « لا ضرر ولا ضرار » .

ويؤمن بسـد الذرائع واعطاء الوسائل احـكام المقاصد والغايات .

وجملة القول فى الرجل القرآنى : انه يفهم الاسلام

فهما واضحا سهلا يسيرا كما جاء فى حديثه معى ، على الطريقة التى فهم بها محمد الاسلام أنه قريب فى نظرى من أبى حنيفة الذى أصر على رفض القضاء ، ومالك الذى أفتى فى البيعة وابن حنبل الذى أريد على على هوى فلم يرد .

وأجد حسن البنا قد حرر نفسه من مغريات المجد الناقص ، ومفاتن النجاح المبتور ومثل هذا التحرر فى نظر امرسون هو غاية البطولة ولذلك فلم يكن عجيبا ان يقضى الرجل على هذه الصورة العجيبه فكان فيها كشأنه دائما ، غير مسبوق .

كان الناس يرونه غريبا فى محيط الزعماء ، بطابعه وطبيعته ، فلما مات كان غريبا غاية الغرابة فى موته ودفنه ، فلم يصل عليه فى المسجدغير والده وحملت جثمانه النساء ولم يمش خلف موكبه أحد من هؤلاء الاتباع الذين كانوا يملأون الدنيا لسبب بسيط هو أنهم كانوا وراء الأسوار .

لقد نقل الرجل بعد أن أسلم الروح الى بيته فى جوف الليل ومنع أهل البيت من اعلان الفاجعة ، وغسله والده ، وخيم على القاهرة تلك الليلة كابوس مزعج كئيب ، ولقد كان خليقا بمن سلك مسلك أبى حنيفة ومالك وابن حنبل وابن تيمية مواجهة للظلم ومعارضة للباطل ، أن تختتم حياته على هذه الصورة الفريدة

المروعة ، التى من أى جانب ذهبت تستعرضها ، وجدتها عجيبة مدهشة .

انه كان يدهش الناس فى كل لحظات حياته ، فلا بد ان يدهش الأجيال بختام حياته ، ان الألوف المؤلفة قد سارت فى ركب الذين صنع لهم الشرق بطولات زائفة ، أفلا يكون حسن البنا قد رفض هذا التقلبد الذى لا يتم على غير النفاق .

ان هناك فارقا أزليا بين الذين خدعوا التاريخ وبين الذين نصحوا لله ولرسوله ان هذا الختام العجيب سيظل مدى الأجيال يوقد فى نفوس رجال الفكر النور والضياء ، ويبعث فى قلوب الذين آمنوا معه ما بعثه الحق فى نفوس أهله حتى يمكنوا له .

ان مقتله شبيه بمقتل الحسين ، أنها العوامل المختلفة التى تجمعت لوضع حد للفكرة الحية التى كانت تندفع الى الامام كالأعصار .

وحين عجز (القضاء) انفذ (القدر) حكمه .

ان الأمر الذى أسأل عنه فلا أجد له جوابا : هل هناك علاقة ما بين الاسلام كما كان يفهمه حسن البنا ويدعو اليه وبين نهايته، ان كثيرين يدعون الى الاسلام ويحملون اسمه ، فهل هناك خلاف جوهرى بين ماكان يدعو اليه حسن البنا وما يدعو اليه هؤلاء .

لانى لا اعرف الاجابة الصحيحة أدع ذلك للتاريخ»

ح
١٠

طبعت بمطابع المختار الاسلامى